

نِسَاءُ صُنْعِ التَّارِيخِ

أ. أناهير السميري

أُلقي في الكويت يوم الأحد ١٢-٥-١٤٢٤هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

<http://tafaregdroos.blogspot.com> /!#

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

<http://www.muslimat.net>

- الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله . .

والله الموفق لما يحب ويرضى .

عناصر الدرس:

- مقدمة حول الحاجة إلى عبادة الاستهداء حتى نحقق قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .
- مما يساعدنا ويساندنا في طلب الهداية للصرط المستقيم أن نقلب صفحات التاريخ من أجل أن نحقق ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ .

- تقليبنا لصفحات التاريخ وقراءتنا لحال القوم الذين صنعوا أمجادهم لنرى كيف صنعوا تاريخهم، فنصنع نحن تاريخنا.
- نماذج لنساء صنعن التاريخ

(١) آسية بنت مزاحم

- ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ اذْكُرْ لِي شَرِّ آلِ عَادَ كَمَا كُنْتَ غَافِلًا﴾ سؤالها باسم الرب دليل على أنها تعلم الملك المرابي الملك المدبر هو الذي تفزع إليه الخلائق وتسأله وترجوه.

- ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ اذْكُرْ لِي شَرِّ آلِ عَادَ كَمَا كُنْتَ غَافِلًا﴾ دلالة ظاهرة على قوة الإيمان باليوم الآخر وبلقاء الله وبوعده.

- ﴿وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ النجاة مبدأ من مبادئ صناعة التاريخ لأنفسنا.

(٢) أمنا خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

- المرأة ذات الحكمة هي التي تنفعل مع المواقف كما ينبغي، تختار الكلام المناسب في الوقت المناسب وتقول الحق والصدق بأسلوب يوصل من يسمعها إلى الثقة بالله.

- المرأة صاحبة المجد تتمتع الانفعالات بالتذكير بالله،

- الرعاية والإرشاد لزوجها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعله صباحًا مباركًا وأن ينفعنا بهذه الساعات وأن يكون اجتماعنا اجتماعًا مباركًا، وأن نكون من أولئك القوم الذين قيل لهم قوموا مغفورًا لكم، نسأله سبحانه وتعالى وكلنا رجاء ويقين أنه لا يخيب الداعين السائلين، نسأله سبحانه وتعالى أن يقبلنا مع المقبولين وأن يهدينا مع من هدى وأن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وهمومنا.

ومن أعظم ما نردّد في كتاب الله الفاتحة، فنحن نقول ونحن في حالة من الإنكسار والذل: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ثم نعقب على هذا الطلب ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فنحن نريد أن نسير في هذه الحياة مهتدين إلى صراط ربنا ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ﴾^١، فأنت عبادة الاستهداء العظيمة المبنية على شعورك أنك في ظلمة وأنت تحتاج إلى نور، وأنت في سفر وتحتاج إلى دليل، وأنت تائه في الحياة وعابر سبيل تحتاج إلى من يرشدك إلى الطريق السوي السليم.

طلبك للهداية وقيامك بعبادة الاستهداء ييسر عليك فهم ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^٢، ييسر عليك فهم أي موطن في القرآن توصف الحياة بأنها ظلمة وأنت تطلب النور أو توصف الحياة أنها سفر وأنت تطلب الطريق. وعبادة الاستهداء من العبادات المهمة جدًا التي لا تنفك عنا أبدًا، طول الوقت نشعر أننا بحاجة إلى أن يهدينا الله إلى الصراط المستقيم.

ومما يساعدنا ويساندنا في طلب الهداية للصراط المستقيم أن نقلب صفحات التاريخ فنجد ما نطلبه بعد طلب الهداية ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^٣ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾^٤، فنحن نريد أن نسير مثل ما سار من أنعم الله عليهم بالهداية فنقول له أنت تهدي عبادك إلى الصراط المستقيم من أوصافك أن تهدي العباد إلى الصراط المستقيم فاهدني فيمن هديت.

^١ [النحل : ٩]

^٢ [الأحزاب : ٤٣]

^٣ [الفاتحة : ٦،٧]

من هم المهتدين؟ ما صفاتهم؟ ما أحوالهم؟

فإذا عبدت الله بعبادة الاستهداء، فنور طريقك بقراءة التاريخ من أجل أن ترى نماذج لمن هدى الله.

➤ نحن نعبد الله عبادة الاستهداء حتى نحقق قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .

➤ ونقرأ التاريخ من أجل أن نحقق ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ .

تعرف أن الله أنعم على خاصة من الخلق، تعرف أن خير الخلق بعد الأنبياء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فلما تسمع أسماء هؤلاء أصحاب الأجداد يقع في قلبك مع تعظيمهم والشعور بنعمة الله عليهم الاقتداء بهم!

ونحن نقلب صفحات التاريخ لنرى كيف صنع أولئك القوم تاريخهم، كيف صنعوا هم تاريخهم لكي نصنع نحن تاريخنا.

لقاؤنا بعنوان:

نساء صنعت التاريخ

نحن نقرأ في التاريخ من أجل أن نرتبط بقوم رزاهم الله ورزاهم النبي صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء القوم نذكرهم إجمالاً كل مرة ونحن نقول ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، كل مرة نعيد ذكرهم لكن على وجه الإجمال، والإجمال ينفع في تقرير أصول العقائد، لكن التفصيل هو الذي يثير المشاعر.

تفصيل الأخبار عن القوم الذين مضوا تجعلنا وقت ما نقول ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، يكون في ذهننا أولئك القوم الذين أنعم الله عليهم، فما نذكر أبو بكر أو عمر رضي الله عنهما أو غيرهم من الصحابة إلا وقلوبنا قد امتلأت ترضياً.

والأعظم أننا لما نسمع أسماء أمهاتنا الذين تربطنا بهم مشاعر الأمومة! أمي أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، أمي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

هل أمنا هذه أخذت بُعدها في مشاعرنا ومشاعر أبنائنا الذين نربهم؟ إذا أمك الحسية التي من الدم شعر بها أبنائك، شعروا بعنايتك بها، سيورثون مباشرة العناية ولو بعد حين، فمثل هذا الطريقة نورثهم العناية بأمننا، أمهاتنا أمهات المؤمنين نورثهم العناية بهم فيرتبطوا ببيت النبوة بشرف، كم فرطنا في هذا الشرف العظيم (أن تنتسب لبيت النبوة!).

تقليبنا لصفحات التاريخ وقراءتنا لحال القوم الذين صنعوا أمجادهم لنرى كيف صنعوا تاريخهم، فنصنع نحن تاريخنا.

لا تنسى أنك ستكتب تاريخك وستقرأه أنت بين يدي الله، ستقرأه أنت حين تلقى الله، ﴿هُنَالِكَ تَبْلَوْنَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ^١ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ^١﴾ .

هنالك : يعني يوم القيامة.

تبلو : تفحص .

ما أسلفت : ما قدمت، ما سبق لها .

تُختبر كل نفس يوم القيامة ما قدمته من أعمال فتقرأ كل نفس تاريخها الذي كتبه!

فأنت ستقلب صفحات التاريخ من أجل أن تقرأ القوم الذين نشي عليهم وقت قراءتنا للفتحة أن تهدينا الصراط المستقيم كما أنعمت أولئك القوم الذين أنعمت عليهم، نقرأ الذين أنعم الله عليهم كيف كانت أحوالهم.. كيف كان تاريخهم، نحن نكتب تاريخنا بقدر المستطاع مقارب لتاريخهم، من جهة أخرى نفهم المسألة فنقول كتابتك للتاريخ من أجل أن تكتب تاريخك الذي يخلصك هو عبارة عن ردود فعلك على الأقدار التي تعيشها.

كيف ستكتب تاريخك؟ من أين ستصنع لك مجدك؟ أولاً مجدك الذي ستصنعه مجد في السماء وليس عند أهل لأرض، أنت تريد أن تكتب لنفسك تاريخ لما تأتي كل نفس فتختبر ما قدمت تجد أمام عينيك شيء يشرفك أن تقرأه كتاريخ لك.

أنت هنا في الدنيا تعمل العمل ولا تستطيع أن تتصور أبعاده مقبول غير مقبول فيه ثغرات صدق كذب نفاق رياء.. يأتي يوم القيامة هذا العمل فتختبره وترى تاريخك الذي مضى ماذا فعلت به، فأكثر شيء يهملك الآن أن هنالك -وليس هنا- لما تختبر

كل نفس ما أسلفت تكون قد أحسنت فيما أسلفت! ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ .

تاريخك و مجدك الذي ستفعله هو رد فعلك على الأقدار التي تعيشها.

^١ [يونس : ٣٠]

رد فعلك على القدر، كما في سورة الحديد ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، في أي شيء يجبك، ما وصفها؟ ما حالها؟ لا بد أن تعرف أنها ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ أَن نَّبْرَاهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، لماذا نُخبر بهذا الخبر؟

حتى تكون ردة فعلك متزنة ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ ، تعرف تكتب مجدها كما ينبغي، ويكون ردود فعلها على الأقدار التي تجري عليها كما ينبغي، ولا تجدها تضارب ولا تحارب ولا تقا تل إنما تسير بهدوء، ولا تثبط وتبعد وتيأس، ولا تترحم وتضارب، إنما تسعى في أمر الدنيا وتسارع وتسبق في أمر الآخرة. مطلوب منك أن تكتب تاريخك، وهذا تاريخك هو رد فعلك على الأقدار التي تجري عليك، ورد فعلك على الأقدار التي تجري عليك تُكتب لك أو عليك ثم تختبره ثم تلقى الله ثقله ثم تلقى الله.

حتى نصل إلى نتيجة تساعدنا على أن تكون ردود أفعالنا على تاريخنا كما ينبغي، علينا أن نقرأ في تاريخ من صنعوا لأنفسهم مجداً وأثنى الله عليهم وأثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

آية عظيمة في أواخر آل عمران تصف لنا قوم سيحسنون في صناعة تاريخهم نتيجة نضح ألباهم، نتيجة نضح تفكيرهم، نتيجة نضح عقولهم!

بدأ هذا السياق بوصف الحقيقة ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ ﴾ ، آيات لمن؟ من الذي ينتفع بآيات تدله دلالات؟ ﴿ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ، ما أوصافهم؟

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ ، وقلوبهم مشغلة بأي شيء؟ ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، قلوبهم مشغلة بالتفكير، ألسنتهم طليقة بالذكر وقلوبهم مشغلة بالتفكير، لكن أي تفكير؟

يتفكرون في هذه الآيات البينات الظاهرات، والأمور التي تجدد عليهم، يخرجون بنتيجة ماذا تكون؟ عقولهم ناضجة، فذكرى الدار الآخرة لا يخلو من عقولهم من أجل ذلك ما أن ينظروا إلى السماوات والأرض ينظروا إلى ما يظهر لهم فيقولون ﴿ رَبَّنَا مَا

¹ [الحديد: ٢٢، ٢٣]

خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا ﴿١﴾ ، كل هذه الحكمة التي تشهد بها السماوات والأرض تنطق بالحق فتقول لا بد أن تلقى الله، وكما وضع كل شيء في مكانه سيضع كل امرء في مكانه، و يمكن أن يستوي المؤمن والكافر والبر والفاجر، بل سيجعل الله كلاً في مكانه، وقد تكرر في كتاب الله آيات مثل ﴿٢﴾ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿١﴾** ، هل ممكن أن يجعل الجرمين مثل المسلمين! هل ممكن يجعل المتقين مثل الكفار! هل ممكن يجعل البر مثل الفاجر! لا يمكن، لأنك نظرت إلى السماوات والأرض ورأيت كل شيء يوضع في مكانه وتظهر عليه آثار عزة الله وحكمته، فمستحيل أن برًا سساوي فاجرًا.

إذن يقولون: ﴿٣﴾ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١﴾** ، ينتقلون إلى ذكر الدار الآخرة، ومن أعظم ما يصلح ردود فعل الإنسان هو بقاء ذكر الدار الآخرة على باله.

فغياب ذكر الدار الآخرة يجعل العبد لا يفكر إلا تحت قاعدة هواه، هو الذي يحكمه، فيقولون ﴿٤﴾ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١﴾** ، ثم يقرؤون أن الدنيا لا تساوي شيء بدليل ﴿٥﴾ **رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ ﴿١﴾** ، مهما كان متمعًا في الدنيا ﴿٦﴾ **فَقَدْ أَخْرَبْنَاهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿١١٣﴾** **رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ ﴿١﴾** ، في تفسير أهل العلم المنادي هو القرآن، يعني في حياة الصحابة كان المنادي هو النبي صلى الله عليه وسلم وفي حياتنا نحن المنادي هو القرآن.

﴿٧﴾ **أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامِنَّا ﴿١﴾** ، صدقنا وتحركت مشاعرنا وأتت هذه الأخبار علينا فقبلناها وانفعلنا معها ﴿٨﴾ **رَبَّنَا فَاعْفُرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١﴾** ، كل تفكيرهم في ذكرى الدار الآخرة، فذكرى الدار الآخرة ملأت قلوبهم تفكيرهم في الدلائل موجودة أمام أعينهم، فنقلتهم هذه الدلائل إلى ذكر الدار الآخرة .

﴿٩﴾ **رَبَّنَا وَءَايَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١﴾** ، فماذا رد عليهم رهم؟ ﴿١٠﴾ **فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِي ﴿١﴾**

فإذا قرأت رجال صنعوا التاريخ ستقرأ نساء صنعن التاريخ، المشكلة ليست رجل وامرأة، المشكلة من أنت من جهة الإيمان، ولذلك يقول الله عز وجل ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾^١، يعني الذكر والأنثى بعضهم من بعض لكن المهم ماذا تفعل، فلا تقيس الصلاح إلا بالإيمان.

بمعنى من كان مؤمناً كان عمل الخير منه عملاً صالحاً، من لم يكن مؤمناً كان عمل الخير منه استجابة لدافع فطري أو لشهوة نفسية.

الله لما خلقنا في الدنيا وهبنا مواهب عظيمة لو انتفعنا منها لاستفدنا، من أعظم المواهب التي وهبناها فطرنا السليمة، الفطر السليمة التي تحب الخير وتكره الشر، تحب العدل وتكره الظلم، ولذلك الصحابي الجبير ابن مطعم كان مسلماً إلى أن نزلت سورة النحل وأتى فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾^٢، فقال وهو مسلم: الآن اطمئن قلبي! لأن أتت أوامر الشريعة موافقة تماماً للفطرة التي تتحرك في النفس.

ثم أن الله خلق الخلق على طبع (إِنَّ اللَّهَ فَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا فَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ)^٣.

في حديث الأشج قال له النبي صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ فِيكَ خَلْتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْجِلْمَ وَالْأَنَاةَ)). قَالَ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهَيْمَا أَمِ اللَّهُ جَبَلْنِي عَلَيْهِمَا؟" قَالَ: ((بَلِ اللَّهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا)). قَالَ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَىٰ خَلْتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ"^٤.

فمن كان يتخلق بخلق من شرق او غرب فهذا سيكون مما وهبه الله من فطرة بقيت موجودة آثارها ومن طبع يطبع الله عز وجل عليه الخلق لكن ليس خيراً إلا إذا قبل رسالة الرسول، ولذلك ﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونَ﴾^١ و﴿طُورِ سِينِينَ﴾^٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ﴾^٣، وإذا استجاب للرسول بقي في ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^٤، إذا لم يستجيب ﴿ثُمَّ رَدَدْتَهُ أَسْفَلَ سَفَلِينَ﴾^٥.

^١ [آل عمران : ١٩١-١٩٥]

^٢ [النحل : ٩٠]

^٣ المستدرک علی الصحیحین للحاکم، قال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

^٤ رواه أبو داود في سننه، قال الشيخ الألباني : حسن دون ذكر الرجلين.

^٥ [التين : ١-٥]

معنى ذلك الذي يصنع التاريخ ذكراً كان أم أنثى المطلوب منه أمرين (قاعدة ونتيجة):

القاعدة : أن يكون مؤمناً.

النتيجة : أن يعمل عملاً صالحاً.

في آية آل عمران يؤمن بالله واليوم الآخر، وقلبه وعقله مشغول بما أظهره الله من أدلة، فكل يوم يزيد إيماناً ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾^١، فلا تتصور أن التفكير عبادة تخص من كان في خارج الإسلام ودخل الإسلام، التفكير كما أنها سبب لإدخال الإنسان من الكفر إلى الإيمان كذلك هي من أهم أسباب زيادة الإيمان.

لذلك في القرآن يكرر عليك كثيراً وصف هؤلاء القوم العقلاء (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون لقوم يسمعون لقوم يتذكرون..)، وكل هؤلاء القوم صفتهم أنهم يتفكرون.

فإذا انشغل قلبك بالتفكير في الدلائل التي ترشدك إلى لقاء الله، وآمنت وصدقت وحركت مشاعرك تجاه لقاء الله كل عمل يقع منك وأنت تفكر في لقاء الله يكون عمل خيراً، كل عمل خير تعمله وأنت تفكر في لقاء الله فهو عمل صالح.

ولذلك من أهم أسباب مضاعفة الأجر قوة استحضار اليوم الآخر قوة الإيمان باليوم الآخر تكون سبب لمضاعفتك، والدليل على ذلك حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي نسمعه بتكرار الذي وصف فيه حال الصحابة وحالنا.

وصف لنا صلى الله عليه وسلم حال الصحابة وحالنا فقال: ((فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ ، وَلَا نَصِيفَهُ))^٢ الكمية عظيمة والنوعية ذهب، والصحابي يحفن حفنة من شعير بقدر يده أو نصفها (مدّ أحدهم ولا نصيفه) يتصدق هو وتتصدق أنت بمثل جبل أحد الذي من نوع الذهب ما تبلغ مد أحد الصحابة ولا نصفه، والسبب الإيمان، قوة القلب في تصور اليوم الآخر، قوة الشعور أن هذا ميراث الله، المال مال الله، استعد به للقائه.

فلذلك لما سمعت عن أولى الألباب الذين في سورة لآل عمران سمعت كيف حالهم مع الدار الآخرة وحضورها، فمن استحضر الدار الآخرة وتصورها استطاع أن يجعل عمله الصالح مضاعف بسبب ما معه من إيمان وقوة يضاعف أعمال الخلق بسبب إيمانهم، القضية في إيمانك وعملك الصالح الذي يترتب عليه.

^١ [آل عمران : ١٩١]

^٢ متفق عليه.

مجدك وتاريخك الذي تكتبه وتريد أن تقرأه لما تلقى الله معتمد اعتماد كلي على قوة إيمانك وقوة استحضارك للدار الآخرة.

فالأعمال التي تعملها يحركك إليها إيمانك، ستكون مضاعفة نافعة تثقل ميزانك، والأدلة كثيرة على ذلك..

نساء صنعن التاريخ

ستتكلم على نساء هنّ ألباب صنعن التاريخ، هذا التاريخ يخصّهم ثم أصبح تاريخ يخصّ العالم! وإذا بدأنا هذا الكلام نقف على هذا الحديث الذي رواه الترمذي وهو حديث صحيح:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ : مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ))^١.

وفي حديث البخاري ومسلم: ((كَمَلْ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ غَيْرُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ وَآسِيَةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ))^٢.

فمثل هذه النصوص يجب أن تكون ظاهرة أمامنا وأمام أبنائنا الذين نريهم لكي لا تأتيهم تلك المشاعر التي تقول نحن في فقر إلى القدوات! نحن لسنا بفقر إلى القدوات، نحن في فقر من جهة إبرازنا للقدوات، فقر في بيان حال القوم الذين أنعم الله عليهم ممن سبقنا، فالكبير لا يسمع عن هؤلاء فما بالك بالصغير، الكبير ليس في حال حرص أن يقرأ سير هؤلاء ويعتني بهم ويجعلهم أمام عينيه فما بالك بالصغير الذي يتربى!

لن نستطيع أن نمر على كل سير أولئك العظماء، لكن سنختار منهم ونختار من بين سيرهم ما يتيسر..

^١ رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

^٢ متفق عليه.

نبدأ بأسية زوجة فرعون

نذكر تركية الله لها بالقرآن، قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾^١ ونقف أمامها في عدة نقاط:

○ نبدأ أولاً بقوله تعالى ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ والمثل في القرآن يتضمن ثلاث معاني:

(١) أصل معنى كلمة المثل: الوصف، ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ﴾^٢ يعني وصف الجنة التي وعد المتقون، من هذا المعنى الأساسي خرجت معاني أخرى

(٢) المعنى الثاني المتداول الذي تجده في القرآن معنى كلمة مثل بمعنى الشبيه والنظير، ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا ﴾^٣.

(٣) بمعنى الأنموذج، وهو معنى الآية التي ذكرناها، امرأة فرعون نموذج للذين آمنوا. كأنه يقال لنا التفتوا أيها المؤمنون إلى هذا النموذج واجعلوه نموذجًا أمام أعينكم، وإذا قلت نموذجًا سأضعه أمام عيني وأسير كما سار وأحتذي به.

○ نناقش سيرة من سير العظيمات، وبدأنا بمن بدأ بها الرسول صلى الله عليه وسلم، فبعد أن ذكر مريم ابنة عمران ذكر آسية زوجة فرعون، والله عز وجل ضرب آسية مثلاً في القرآن .

الله عز وجل وضع أمام أعينكم أيها المؤمنون نموذجًا عليكم أن تتفحصوه، ويتبين لكم جيدًا وتسيروا على ما سار، وأنت تتفحص حالها اقرأ سيرتها في القرآن، ومن الآيات التي نتفحص فيها حال آسية هذه الآية، لو وقفنا أمامها كما ينبغي سيكون أمامي منهج أسير عليه.

ثم أسمع ماذا قال الله عز وجل في وصفها ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ وهذا دليل على أنها كانت في حال مع أهل الشرك وأهل الكفر وأهل الطغيان، فرعون رمز للطغيان وهي امرأته وعاشت هذه الحالة التي انتقلت فيها من الكفر إلى الإيمان، وهي تحت سلطته.

^١ [التحريم: ١١]

^٢ محمد: ١٥

^٣ البقرة: ١٧

﴿ إِذْ قَالَتْ ﴾ وهذا دليل على فرعها وعلى لجوئها.

﴿ رَبِّ ﴾ واختيارها لهذا الاسم يدل على أن العبد إذا علم أن الملك المدبر الرب المرابي بيده كل شيء سيكون فرعه مباشرة إليه.

﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ فسؤالها باسم الرب دليل على أنها تعلم الملك المرابي الملك المدبر هو الذي تفرع إليه الخلائق وتساله وترجوه، وسؤالها يوافق سؤال كل الأنبياء فكل الأنبياء كان سؤالهم لله باسم الرب.

فمن علم معنى اسم الرب لم يتكاسل أو يتوانا أو يشبطة الشيطان في أن يفرع في كل حال إليه، لأنك تقول يارب يامدبر لكل شأن يا مسبب الأسباب يا صارفًا للشر يا ميسرًا للخير، يا رب يا من وصفه أنه ملك ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ *مَلِكِ النَّاسِ ﴾ فهو الرب الذي يملك وهو الرب الذي يدبر وهو الرب الذي يلفظ، وهو الرب الذي يجبر، وهو الرب الذي يفرج

فكونك تجعله صمدك وكونك تجعله مفرعك وأمانك، فقد أحسنت إلى نفسك.

فالمقصود أن حال الكمّل ممن يصنعوا تاريخهم أهم علامة في تاريخهم الجيد هو أنهم إلى ربهم فرعين.

﴿ إِذْ قَالَتْ ﴾ ماذا قالت؟ ﴿ رَبِّ ﴾ نداء لله، الفرع إليه، اللجوء إليه، الانكفاف عن الخلق، القناعة بأن لا أحد ينفعك ولو اجتمع أهل الأرض ولا أحد يستطيع أن يضرك ولو اجتمع أهل الأرض، إنما ينفعك ويحلب لك النفع الله، ولهذا النفع أسباب وهو الذي يسبب الأسباب، وهو الذي تجري نفعه في الأسباب، وهو الذي يدفع عنك الضر، وهو الذي يسبب لك أسباب نفع الضر، وهو الذي يسخر لك الأشخاص الذين يدفعون عنك الضر، فبدل ما تتقف بين يدي العبيد قف بين يدي ربهم الحكيم العليم البر الكريم الحميد المجيد!

ثم ماذا طلبت؟ ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ تدل هذه الجملة على السرعة وعلى قوة اللجوء والفرع، سنخرج منها بنتائج:

منها: الإيمان باليوم الآخر وبلقاء الله وبوعده ظاهر مسيطر على المشاعر.

وهذا وجوده أكثر سبب يحرك العبد للشوق إلى الله، وضعفه وفقده أكبر سبب يجعل الإنسان يمشي هويناً وهو سائر إلى الله، يتناقل، لا بد أن نحرك في نفوسنا حقائق الإيمان باليوم الآخر.

حقائق الإيمان باليوم الآخر تخرج الإنسان من الغفلة

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴾^١ هؤلاء القوم الذين

لا يرجون لقاء الله ورضوا بالحياة الدنيا واطمئنوا بها، أهم أثر لهذه الصفات الغفلة عن يوم القيامة، الغفلة عن لقاء الله، الغفلة عن سؤاله.

تصور هذه المرأة العظيمة التي هي في الضنك العظيم وتحت سلطة أطغى رجل في الأرض تتصور الدار الآخرة إيماناً جازماً! يكون عندها من اليقين أن ربها يسمعها، يكون عندها من اليقين أن هناك جنة، وأن هناك بيوت فيها، وأن هناك طلب ورجاء أن يبني الله عز وجل لها بيت في الجنة، فتفرغ إليه في وصف هذا العذاب وتطلب بيت في الجنة! إنه اليقين بالدار الآخرة، وعدم الرضى ولا القبول بالدنيا، وعدم الغفلة عن الآيات التي هي حولك.

هذه المرأة نموذج في تاريخها ليس فقط لأنها تحت أعظم طاغية في التاريخ، بل لأن إيمانها بالدار الآخرة وشعورها بذلك كان حاملاً لها بالانفصال عن الدنيا وتوجه الفكر إلى الآخرة.

وقد ورد في الثناء على الأنبياء كما في سورة ص أنه سبحانه وتعالى قد أخلصهم بخالصة وهي ذكرى الدار، يعني لهم خاصية تميزهم وهي أن ذكرى الدار الآخرة لا تنفك عن عقولهم، يرون من الآخرة ما لا يروه الخلق ولا يشاركون الناس في رؤية الدنيا، لا يرونها بهيجة كما يرونها، سبحانه الله!^٢

نفس الحقائق لكن كل واحد يراها بشكل مختلف، فالذي ضعف إيمانه يرى زهرة الحياة الدنيا بهيجة، والذي قوي إيمانه لا يرى الدنيا كما يراها أهل الدنيا، إنما نظرهم إلى الآخرة، كحال الأنبياء ﴿ أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾^٣.

^١ [يونس: ٧]

^٢ لو تفكرت في أمر خارج عن هذا ورأيت أن الله عز وجل خلق المخلوقات بصرهم مختلف قوة وضعفاً، ثم درجة الألوان التي يرونها المخلوقات مختلفة، مثلاً الإنسان يرى ألوان الطيف السبعة فلذلك يرى هذا أحمر وهذا أخضر يرى هذه الألوان، لكن الحيوانات مثلاً الكلب والحمار لا يرون الأشياء إلا بين السواد والبياض فقط، ومثل الديك كما في الاختبارات يرى فوق ما يرى الإنسان، ولذلك ربما هذا يفسر أن الديك يصيح عند رؤية الملائكة.

^٣ [ص: ٤٦]

صحيح هم أنبياء ولهم خاصية لكن هذه المرأة تربت على العز والترف وعاشت ومعها عامل السلطة، وعامل السلطة من العوامل الخطيرة التي تفسد النفوس، وهذه الأشياء التي عاشتها كمحوبات أو مرغوبات لما خالط الإيمان بشاشة القلب ووقع الحقائق في مكانها انتقلت المشاعر، فبعد أن كان هذا بهيحًا ويتنافس عليه الخلق، أصبح لا قيمة له!

إذا قيل لك أن ما هو أعلى في السماء وعند الرب الكريم ويكون ما هو أعلى في مجاورته ولا يجاوره إلا من صلح من الخلق صلح لأن يجاوره، فكم ستتحرك النفس؟!

ستتحرك على قدر تصديقها وشعورها وصفاءها، فهذا الذي حصل لامرأة فرعون، حقائق دخلت لامست بشاشة القلب والشعور فنقلت الملمات والحجاب والمرادات نقلتها من هنا الدنية إلى هناك العلي.

ثم هي امرأة وعندها بيت والمرأة أكثر ما يهملها بيت، عندها بيت وعندها سلطة، فتركت كل هذا المحسوس وراء ظهرها وطلبت في جوار الله ما يجبر لها هذا الذي ستتركه وراءها!

أنت ماذا تريد؟ هل تريد بيتًا في قلوب الخلق أو تريد بيتًا في مجاورة الرب؟!

الجواب السهل اليسير (بيتًا في مجاورة الرب) لكن هذا يحتاج إلى مسافة مجد! يعني كل ما نفسك مالت هنا والتفتت إلى الخلق تردّها و ترغبها وتقول هناك جنات النعيم، هناك حيث الراحة التامة، حيث الصفاء..

آسية: امرأة آمنت صدّقت ← كتبت مجدًا بدعائها ﴿رَبِّ ابْنِ لِي﴾

﴿عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ معناه تؤمن بلقاء الله إيمانًا حقيقيًا، عندها من القناعة أن بيتها في الدنيا ليس إلا تراب، وأن الطمع ليس في الدنيا ولا في أماكنها ولا ذات شغف في البيت الذي في الدنيا.

قد يقال نريد بيتًا عند الله لكن هذا لا يمنعنا من التكاثر والتفاخر ببيوتنا وتصبح في لحظة غاية اهتمامتنا!

لا أقصد الإهمال، أقصد الشغف بالدنيا، إذا كنت شغوفًا بالدنيا معناه أن مشاعرك التي تملكها استغلت، مشاعرك تجاه الآخرة ضعيفة بل تكاد أن تكون ميتة! لذلك لا يحصل هذ الشعور (ابني لي عندك بيتا في الجنة).

لكن لما يدخل الإيمان فيخالط بشاشة القلب فيشغلها عن الدنيا، فإذا شغلك الإيمان والتعلق بالرحمن عن كل شيء فذاك الوقت سيكون حقيقة الشوق إلى الله وستنفع بكلام الله في وصف الجنة ونعيمها وتتعض بمن يعظك..

لكن ما حالنا مع الدنيا؟ هل نكرهها ولا نعايشها أم ماذا نفعل؟

كأنك مسافر، لو نظرنا إلى إخواننا المغتربين سواء من بلادنا يسافرون إلى الشرق والغرب للدراسة أو من بلاد المسلمين ويأتون.. هل يصلون إلى حال الترف في بيوتهم؟ لا أبداً، على أقل حد، والسبب أنهم يقولون هذه ليست بلدنا لما نذهب إلى بلدنا نفعل.

هناك عند الله والجنة اغرس فيها، الجنة تحتاج منك أعمال من أجل أن تصل إليها، الدنيا بُلغَةٌ مَنْعَصَةٌ، بُلغَةٌ ستبلغ بها إلى الآخرة، وهي مَنْعَصَةٌ لكي لا يأتي يوم تطمئن لها أبداً، فعائشها على أنها بلغة منغصة.

ثم أنك ستعيش وتفعل نفس الأفعال لكن كل الفارق أنه ليس لديك مشاعر أمام تلك الأشياء، بل مشاعرك ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾^١ فأنت إنسان هادئ مستقر ناضج متزن.

مقدار الاتزان على أساس تصورك للحقائق، بمعنى لو تصورت أن الدنيا زائلة، وضاع منك خاتم ذهب هل ستنزل منك دمعة من أجله؟ هل ستحزن؟ لا، بل ستفعل ما تستطيعه وتبحث، ولو ما وجدته انتهى الأمر، تذكر نفسك وتقول لها:

نفسى التي تملك الأشياء ذاهبة فكيف تبكي على شيء إذا ذهب

وتكون صادقاً في هذا ولا تكذب على الله، ولما تجد نفسك تحزن عليها تقول لنفسك: عيب عليك الذي أعطاك أخذ منك وهذا ليس بشيء، نعم الله تترأ وعطاياه لا تنتهي، والطمع ليس في ذلك، و الحسرة والآلام ماذا ستفعل.

إذن من الفوائد في قوله: ﴿ رَبِّ أَبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ قوة إيمانها بلقاء الله واستحضارها للجنة والعناية بها وأيضاً فهمنا شعورها تجاه بيت الدنيا وكونه تراب مع اجتماع المملك فيه لكنها باعتته من أجل الآخرة.

في كثير من الأمور في الدنيا تحبها وتشغلك عن باب الله، فتذكر أن امرأة فرعون تركت بيتها الذي هو مصدر عزها، تركت بيتها الذي من التراب وطلبت من ربها بيتاً في الجنة، فأنت اترك كل شيء متصل بالتراب وراءك واطلب عوضه من الله في الجنة، وهكذا سير حياتك كل ما لا تجده في الدنيا وهو من حاجاتك اطلبه من الله في جناته سيحبك في الدنيا على فقدته ويعوضك خيراً منه لما تلقاه.

^١ [الحديد : ٢٣]

لا بد أن تبيع شيء من الدنيا وتشتري بذلك الآخرة، ومن رحمة الله وكرمه ولطفه أننا لا نبيع الدنيا كلها خصوصاً في حال مثل حالنا، المتروك شيء بسيط جداً في مقابل النعيم والعطاء، والله عز وجل يبتلي الخلق على حسب إيمانهم و لا يبتليك إلا وأنت تستطيع بما معك من إيمان أن تترك هذا وراءك وتتقدم.

الله يختبرك بما يناسبك، فلا يأتي موقف وقرار صناعة تاريخك في ترك أمر من أمور الدنيا إلا وهو يناسبك وتستطيع تركه.

لازلنا نتكلم عن هذه المرأة العظيمة التي ضربها الله مثلاً ونموذجاً:

طلبها الثاني هو ﴿ **وَمِنْ حَيْثُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ لاحظ التقديم والتأخير، طلبها للمجاورة قبل طلبها للنجاة، وهذا دليل على تعلقها بالآخرة، غاية الفهم أن الدنيا تنقضي وأن النجاة لا بد أن يكون من الدنيا والخروج منها سيكون سيكون، لكن الآن همها ليس مجرد الخروج، بل همها النجاة.

النجاة مبدأ من مبادئ صناعة التاريخ لأنفسنا:

ما مفهوم النجاة عندك؟ يعني هل تشعر أنك محتاج إلى أن تفكر في النجاة؟ النجاة من من؟

بماذا بدأت في الدعاء وبماذا انتهت؟

﴿ **وَمِنْ حَيْثُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ** ﴾ يعني يعتبر القريب ﴿ **وَمِنْ حَيْثُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ الذين يعتبروا أبعد.

النجاة هذه في الدنيا، نحن الآن حولنا أعداء لا نشعر بهم، قبل ما تذهب إلى الفتن والمعاصي، لنبدأ من القريب جداً لنا ((اللَّهُمَّ أَلْهَمْنِي رُشْدِي وَأَعِزَّنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي))¹ النجاة نجاة من الهوى والشيطان الذي يركب هوايا، النجاة النجاة! النجاة النجاة من أولادنا، القريب قد يؤثر عليك أكثر من البعيد، ويضغط علينا، فمن أجل إرضائه وإسكاته ومن أجل صرف غضبه ومن أجل كل هذه التفاصيل التي نتكلم عنها عادة تزل أقدامنا!

¹ سنن الترمذي، قال: هذا حديث غريب.

فلما تشعر أنك ضعيف لا يمكنك ردّ عداوتهم ولا تعرف من أي باب تأتي عداوتهم، فتصور أولاً نفسك وحالك، اطلب من الله أن ينجيك من شر نفسك، هذا إيماناً منك أن نفسك مليئة بالشرور، مليئة بالطباع، وفيها مؤثرات وفيها هوى، ويمكنها من هوى فتزلق ويمكنها من مال فتسرف، ويمكنها من قدرة على اتخاذ قرار فتتحرف..

ثم يأتي بعد هذا مباشرة القريبين أموالنا أولادنا عدو لنا، فالمطلوب الحذر منهم، ليس بمعاداتهم، فقبل أن تكلموا أهل الأرض ناجوا رب السماء، اطلب الله أن ينجيك من نفسك، واطلب الله أن ينجيك من شرهم، استهدي الله في كل لحظة ووقت تعاملهم، نجني من هؤلاء الذين هم بمثابة الأعداء لما أشعر تجاههم من الحب والتعلق وطلب الرضا ما يجعلهم أعداء بالنسبة لي! ما الحل؟

مثل ما فعلت هذه امرأة الفاضلة، ناجت الله بطلب النجاة، فلا تظن نفسك قادراً على دفع فتنتهم ولا الابتعاد عنهم، هم عدوك وهم تحت مسؤوليتك وأنت لا تستطيع أن تحدد نقطة عداوتهم، فما لك إلا أن تكون امرأة فرعون نموذج أمام عينيك. فرعون كان كافراً والحمد لله أولادنا نسأل الله أن يشبهم ويرزقهم زيادة الإيمان وأزواجنا ومجتمعنا بفضل الله من أهل الإيمان نسأل الله أن يزيدهم إيماناً وتقوى ويقين إلا أن مع ذلك هم أعداؤنا، عداً خفي، ما الطريق؟ مناجاة من يملك شأنهم وشأني أن ينجيني منهم وينجيهم مني، فلا تنسى مع طلب الهداية والتوفيق أن تطلب النجاة منهم.

يخبرنا الله عز وجل في كتابه أن من الأبناء من هم عدو ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾^١ وإذا كانوا عدوا فاطلب النجاة، لكن إذا طلبت النجاة اطلبها طلب الفقير الذي يشعر بأن هؤلاء الأعداء أحباب في نفس الوقت، يارب نجني من آثار ضرهم مع بقاء سلامة حبهم، فمن ضرهم علينا شدة التعلق بهم، من ضرهم علينا ضعف التوكل في لحظات بسببهم.

هم أعدائنا لأنهم يشوشون علينا راحة بالنا بالثقة بالله، ولا أحد ينجيك إلا من في السماء، وهو الحكيم العليم الكريم يدخل في قلوبهم الإيمان في نفس الوقت. لذلك اجعل امرأة فرعون نموذجاً ظاهراً أمام عينيك.

كما نعيد ونكرر ونشكر الله على أنهم أبناؤنا وعلى الفطرة وعلى دينهم ولا زال الخير الكثير فيهم مهما كان.

﴿وَيَجْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ سنعتبر هذه المسافة الأبعد، المجتمع الذي قد ضعف إيمانه، كصورة عامة لكل مجتمعات بلاد المسلمين ضعف إيمانهم وقل يقينهم وزاد طمعهم في الدنيا وزاد تفاخرهم وتكاثرهم، فتصور أن لك زميل تداوم معه ثمانية

^١ [التغابن : ١٤]

ساعات في اليوم وهو من أهل التكاثر والتفاخر والأسواق وأنا ليس لي علاقة بهذا كله ولكن طوال الدوام ويحكى لك عن الأسواق والمطاعم والدنيا... إلخ! فيكونوا شر علينا مع أنهم فيهم خير، لكن الأمراض القلبية معدية، الذي يبتلى بحب الدنيا يعدي الشخص الذي لا يحب الدنيا، والذي في قلبه حسد يعدي صافي القلب، والذي في قلبه علو يعدي الذي ليس في قلبه علو، والشاهد على ذلك حديث النبي صل الله عليه وسلم: **(مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوِّءِ كَحَامِلِ الْمَسْكِ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ)**^١ حامل المسك ماذا يحصل لو صاحبتة؟ لابد أن يصل لك منه شيء، ونافخ الكبير؟ حتى لو ما اقتربت منه لابد أن يأتيك من وسخه شيء.

أصحابك الذين يصاحبونك وهم أندادك هؤلاء أكثر صعوبة وخطراً من الناس البعيدين، فهم مجبرون أن يكونوا معنا مثل زميل العمل، الجار.. هؤلاء يؤثرون على اتخاذك للقرار.

ولذلك **(وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ)** هذه صورة من القريبين شديدي القرب **(وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)** يعني المحيط الذي يحيط بي، وفي كل الأحوال نريد أن نصل إلى نتيجة واحدة وهي النجاة.

لن تكون نجاتنا إلا بسؤاله ورجائه، نتعرض لأحوال غاية في الخطورة، نتعرض لشهوات تكون قد تمكنت في قلوبنا أو تكون حاجات أساسية فينا، فما ينجينا من آثار هذه الحاجات إلا الله، فعلينا بعبادة الدعاء والمناجاة.

لكن اعلم أن الدار الآخرة هي ما تعني به، وهذا لا يمنع من دعائك للدنيا، لكن الأكثر اهتماماً وعناية الدار الآخرة، وانظر إلى هذا النموذج كل تفكيرها وهي امرأة ذات ملك وذات سلطان وفي ترف.. تركت كل هذا وراءها واعتنت ببيت في الجنة عند الله يجبر قلبها عن الدنيا وما فيها والنجاة من الأعداء القريبين بالسلطة والأعداء الأكثر بعداً لهم سلطة، هذا النموذج يجعلك تكتب مجدك بوضوح، كل ما يتصل بالتراب فهو تراب، كل هذه الدنيا في النهاية ستأتي اللحظة التي لا يكون لها قيمة^٢.

هذه الحقائق والدروس ماذا تساوي؟ متى ستكتشف الحقيقة؟ لما يفوت الآوان؟!!

^١ متفق عليه.

^٢ الدول التي كان لها عملة وسقطت الدولة، ماذا ستكون أوراق العملة؟ لا شيء، بل أحياناً المسألة لا تتحمل أن تسقط الدولة، مثل الجماعة السعودية الذين كانوا في اليابان وقت الزلزال، حصلت عليهم أحداث كثيرة خرجوا من المنطقة خمس ساعات لكي يلحقوا الطائرة في منطقة أخرى بعيد عن الزلزال، صاحب سيارة الأجرة يقول للمرأة: على قدر البنزين الموجود سأوصلك، أين ما يقف بنا انتهى! قالت له أعطيك مال زيادة، قال ليس هناك محطات مفتوحة، وهي تحمل كل ما عندها من أموال لكن تعتبر أوراق لا تساوي شيئاً، والدولة لم تسقط سياسياً.

وكما حصل في عام ١٤٢٧ توفي أحد الأمراء في جنوب المملكة الظاهر خرج عن الطريق ثم تاه وانقطع به الاتصال وتوفي في مكانه! السيارة مليئة بالأموال وهو من عائلة لهم شرف وملك، ومع ذلك لما توه أو تبعد أو تنقطع، أوراقك لا تفيدك وليست بشيء ولا سيارتك ولا طائرتك ولا أي شيء.

يجب أن تنقذ نفسك وتوجه مشاعرك إلى أن يهملك وتضمن الأمور على قدرها، وتعرف بماذا تفرح وماذا ترجو ومن ماذا تخاف؟

يعيبك أن تخاف على الدنيا!

يعيبك أن يكون منتهى رجاؤك في كل يوم الدنيا!

عيبك أن يمر عليك اليوم واليومين وكل رجاؤك أن تذهب وتعود وتركب وتلتقي... إلخ

عيبك أن يكون كل مخاوفك أن يرسب أن ينقص أن يأخذوا كذا أن لا يأخذوا علي قرضاً أن يمنعوا عني كذا أن يطلبوني بكذا..

ولا ذكرى للدار الآخرة ولا للرجاء الحقيقية والرجاء الحقيقي!

وعلى هذه المشاعر نحن نطلب أمجادنا، على هذه المشاعر نكتب ردود فعلنا تجاه الرغائب التي تأتينا، ماالذي نرغبه؟ ما الذي نرجوه؟ ما الذي تتمناه؟ مرر يومك وانظر كم مرة تمنيت أن يكون لك عند الله بيتاً! وكم مرة خفت من أعداء يكونون سبباً أن يزلق قدمك فتقع فيما لا يرضي الله!

امرأة فرعون نموذج للمرأة التي كتبت تاريخها من جهة رجائها وخوفها !

أصبح رجاؤها أن يكون لها بيت عند الله في الجنة، وأصبح الذي يخيفها هو أي شيء يبعتها عن دينها ويفتنها.

فراجع نفسك.. انظر كل يوم تتحرك مشاعرك إلى أي شيء؟ ما الذي تحبه ما الذي تبغضه ما الذي تقبله ما الذي تتمناه ما الذي نرجوه فتكون تدور حول نفسك في الدنيا سينتهي الزمن وأنت لازالت على نفس الحجاب والمباغض وعلى نفس الرجاء والخوف.. وينتهي الاختبار .

نسأل الله عز وجل أن لا نكون من أولئك القوم الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾^١.

^١ [التوبة : ٤٩]

ننتقل إلى خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

سأشير إشارة سريعة إلى موقف واحد من مواقفها وهو موقفها مع النبي صلى الله عليه وسلم في حادثة الوحي.

في صحيح البخاري عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبُد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها، حتى جاءه الحق - تقصد به الوحي جبريل - وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ((ما أنا بقارئ))، قال: ((فأخذني فغطّي حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّي الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّي الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾)) فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعني بالآية - يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: ((زملوني زملوني))! فزملوه

لننظر إلى هذا الأدب، لم تسأله (لماذا؟)، ولنرى حالنا لما نتعامل مع أندادنا وأزواجنا، يقول افعل، نقول أول شيء لماذا؟ أريد أن أعرف السبب وأقتنع ثم أفعل! ويمكن لا أقتنع فلا أفعل، فانظر إلى هذه الاستقلالية المقيمة الشعور أنه (أنا).

حتى ذهب عنه الرّوع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: ((لقد خشيت على نفسي)) لننظر ماذا قالت! فقالت خديجة: كلاً والله ما يُخزيك الله أبداً!

انظري للحكمة وللنظر البعيد والوقوف والمساندة والحمل على الخير، أثنت عليه بحق لا مجاملة وكذب ولا هضم وعدم رؤية للحق. والأمر المهم أيضاً أنها أثنت عليه في الوقت المناسب وعللت له أنه لا يمكن أن يخزيه الله، يعني على قاعدة (من كان وعاء للخير ملاً الله وعاءه).

"كلاً والله ما يُخزيك الله أبداً" والسبب ما ترى فيه من كمال، فهذا هي المرأة تنظر إلى كمال زوجها وتخبره به في الوقت المناسب بحيث أنه لا يدخل هذا الزوج إلى حال من اليأس والخوف والشعور بالهلاك لأنه قال لها ((لقد خشيت على نفسي)) يعني خشيت أن أهلك، فهي تطمئن أنك من أهل الخير، فلا يمكن أن يكون أحد من أهل الخير يخزي.

أما العمى عن رؤية المحاسن في القوم الذين يحيطون بنا (نعاشرهم ويعاشروننا) نوع من الجحود والنكران والكفر، فلا تجد على السنة غالب النساء ولا تجد في ذاكركم إلا النقص! فلو قلنا اذكري عشر من محاسن زوجك، ربما تذكر اثنين أو ثلاثة! ولو قلنا اذكري عشرة من مساوئه! ستذكرها مباشرة! كلام مؤسف أن نظر عيننا على المساوي.

من رأى الخير نَمَى له، ومن رأى الشر ذاقه.

هذه المرأة العظيمة التي تملك حكمة تختار الكلام المناسب في الوقت المناسب وتقول الحق والصدق بأسلوب يوصل من يسمعها إلى الثقة بالله.

"كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُجْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا" هذا الشيء مهم جدًا في الموقف، لا تكلمه عن نفسها، تكلمه عن الله، كأنها تقول هذه سنة الله، كأنها تقول نحن نعرف الله ونعرف أفعاله، فترغبه في ربه، وتثني على الله، وتعينه على أن يحسن الظن بالله.

فالمرأة ذات الحكمة هي التي تنفعل مع المواقف كما ينبغي، فإذا رأت انفعالاً ورأت خوفًا ورأت ضجرًا.. طمأنت بالله، ورجبت بالله، وحسنت الظن بالله، ولفقت النظر إلى عطايا الله، وتكلمت عن أيام الله، وتكون النتيجة أن يخرج هذا الرجل من أزمته واثقًا بالله، راغبًا بما عند الله.

فهذه هي المحبة الحقيقية، أن تحب أن يكون شريكك في الحياة حسن الظن بالله، مقبل على الله، واثقًا بالله، لا يضطرب عند الأحوال، وإن اضطرب كنت أنت تسكينه، وإن انفعال كنت أنت أمانه.

فكم نعيش انفعالات متعددة، فأين الكلام عن الله؟ وعن كمال صفاته؟ وعن الرجاء فيه؟!

"إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمِعْدُومَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ" تذكر له أفعاله راجية أن تكون هذه الأفعال سببًا لمعاملة الله عز وجل له بالنصرة والتأييد والعطاء، فترغبه فيما عند الله، وتلفتته إلى أن الله قريب مجيب لا يخزي عباده، وأن فيك من الخير ما يدل على أن الرب سبحانه وتعالى يقربك ويعطيك.

من كان وعاءً للخير، ملاً الله وعاءه.

المقصود أن أمتنا خديجة رضي الله عنها كانت نعم السند لبنينا صلى الله عليه وسلم، فهي حقيقة بالحب، حقيقة بالشعور تجاهها بالفخر، حقيقة أن تكون نموذجًا، فترى كيف عاملت النبي صلى الله عليه وسلم في إذهاب الروع عنه، في تسكين فؤاده، في جعله منشرح الصدر تجاه ما وقع عليه، جعلته بكلامها رضي الله عنها ذا ثقة قوية بالله عز وجل، فهذا كله دورنا في الأزمان.

إن من حولنا يملكون باضطرابات، وقد يدخلون في حالة من اليأس أو الخوف، فالمرأة الحكيمة التي تصنع لنفسها تاريخًا وقت ما تنفعل مع الأحداث عليها أن لا يذهب عقلها، بل تكون راشدة ترشده في هذه الأزمة إلى التعلق بالله، تثني على الله، تبين كمال رحمته وحكمته، وتبين أنه العبد الذي يفتقر ويعبد ويرجو لا يخلده الله ولا يخزيه.

المرأة صاحبة المجد تمتص الانفعالات بالتذكير بالله، لا تنفعل مع الانفعالات فتذهب بأصحاب القرارات بعيدا! ويكون خائفًا فتزيده خوفاً، ويكون يائسًا فتزيده يأسًا فتذكره بما يزيده خوفاً!

هي لم تكلمه عن نفسه صلى الله عليه وسلم، أول شيء قالت له "كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا" ثقة بالله إيمانًا به، ثم أظهرت له محاسنه التي ترجو معها أن يعامله الله بكرمه، وأن هذه سنة الله.

فَانطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى آتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ: انظروا للرعاية والإرشاد، انطلقت به، أخذته وأرشدته إلى من يعينه ويساعده، بتعبيرنا (احتوته).

"وَكَانَ امْرَأَةً تَنْصَرُّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُوبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ" هو تنصر لأنه كان لا يقبل دين العرب (عبادة الأصنام)، كان يبحث عن الله في السماء.

فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ: هي التي تقدمت بالكلام.

فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدْعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُجْرِحُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَوْ مُخْرَجِي هُمْ))، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُؤَيِّبَ، وَفَتَرَ الْوَحْيَ.

المقصود أنها اختارت إلى من يشير عليه بكل أمانة وليس من يشير عليه رأيًا يوافق هواها.

هذه المرأة العظيمة أmana التي نجحها ونرى أنها تربطنا ببيت النبوة، ونرى آثار حكمته في موقف عظيم رهيب، ونرى آثار اعتمادها على الله ومعرفتها به في قولها لأن هذا قبل الإسلام.

ختامًا .. الأمر يحتاج إلى تقليب إلى أكثر من ذلك، لكن إن شاء الله ما سمعتوه فيه إضاءه وخير..

أسأل الله بمنه وكرمه أن يجعلنا على خُطأ هؤلاء العظميات ، وأن يجعلنا ممن يقلب التاريخ فينفعنا به اللهم آمين.